شرحُ نصوص مُختارة

من الكتاب والسنّة وكلام الأئمّة

الجزء الرّابع

قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾
[النّحل: ١٧]

اختيار وشرح

أ.د/ أحمد بن صالح الزهراني

عضو هيئة التدريس بقسم الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة الملك عبدالعزيز بجدة

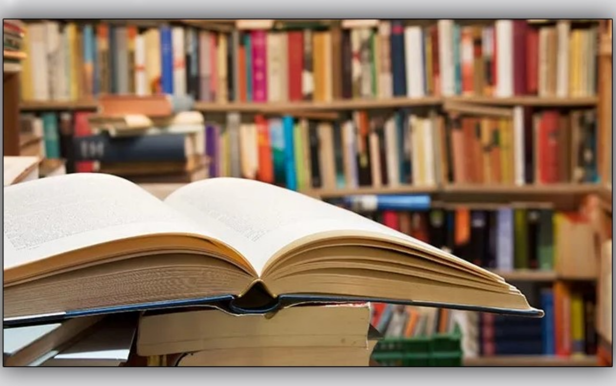

١٤٤٦/٤ هـ

أوراق عربية

المزيد من كتب الدكتور
أحمد الزهراني

المزيد من الكتب
على المنصّة

جميع الحقوق محفوظة

منصة أوراق عربية - www.aawraq.com
أحد مشاريع مؤسسة الأوراق الثقافية للنشر الإلكتروني .
ترخيص وزارة الإعلام رقم (١٤٩٨٣٧)
موقعها الجغرافية : جدة - المملكة العربية السعودية
هاتف: (٠٥٤٤٥٠٢٤٨٣)
البريد الإلكتروني للمؤسسة والمنصة : tinfo@aawraq.com

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة المنصة (أوراق عربية)
حقوق النشر الخاصة بالكتاب محفوظة للمؤلف

تنبيه
الآراء المنشورة في الكتاب تعبر عن رأي المؤلف ومنصة (أوراق عربية) لا تتحمل أي مسؤولية أدبية أو قانونية

شرحُ
نُصوص مُختارة

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمدُلله، نحمدُه تعالى ونستعينُه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أمّا بعد:

فهذا هو الجزء الرّابع من سلسلة (**شرح نصوص مختارة.. من الكتاب والسنة وكلام الأئمّة**)، في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

وهذه السلسلة هي مجموعة أبحاث تجمعت عندي، فآثرت أن أنظمها في سلسلة بهذا العنوان، ليكون الانطلاق في طرق المسائل العلمية من نصوص الوحي أو من كلام أئمّة السف وأهل العلم في الدين عقيدة وشريعة.

وحرصت أن لا تكون خليّة من جديد إما في ترتيب، أو جمع نصوص، أو توجيه كلام، ونحو ذلك كما قال السّبكي: «وأنا دائماً أستهجن ممّن يدّعي التّحقيق من العلماء إعادة ما ذكره الماضون، إذا لم يضم إلى الإعادة تنكيتاً عليهم، أو زيادة قيدٍ أهملوه، أو تحقيقٍ تركوه أو نحو ذلك مما هو مرام المحققين،... إنّما الحَبْر من يملي عليه قلبه ودماغه»(١).

وقد اخترت أن تكون متوسطة بين الاختصار المخل والتطويل الممل، صالحة لصغار الطلبة من أمثالي، تاركا التطويل والإسهاب لمن مكّنهم الله من وديان العلم وشعابه، من أهل الدراية بالعلم بالكتاب والسنة.

ولم أقله بكثرة التراجم والحواشي، بل كل ما يُستغنى عنه مما ليس من صميم البحث فإني أدعه لفطنة القارئ ودرايته، الذي أظنه لا يخفى عليه ولا يصعب أن يجده في مظانه من المصادر، خاصة مع توفر محركات البحث وخزائن الكتب الإلكترونية.

أسأل الله تعالى أن لا يحرمني أجره، وأن يكفيني أشره وبطره، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

أ.د/ أحمد بن صالح الزهراني

https: //prof-ahmadza.com/

azahrany@gmail.com

(١) طبقات الشافعية الكبرى (١/ ٩٩ ـ١٠٠) بتصرف.

(٤)

قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

[النحل: ١٧]

الحمدلله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد:

من المعلوم للباحثين في مباحث الاعتقاد أنّ أسماء الله وصفاته من أعظم ما وقع فيه الخلاف بين السلف وبين مخالفيهم، وتعمّق الخلاف بينهم بسبب تنطع المخالفين وغلوّهم في التنزيه- زعموا- وتشعبهم في الجدل بين بعضهم البعض من جهة، وبينهم وبين السلف من جهة أخرى حتى كثر كلامهم وقل نفعه وزاد ضرره وآل الأمر بكثير منهم إلى الوقف أو الشك كما ذكر ذلك عنهم من ذكر.

ومن الصفات التي كثر الكلام فيها لتداخل مسائلها مع أبواب عديدة من العلم صفة (الخلق)، والمخالفون فيها كثير من الطوائف، بل لم يسلم لأحد من المتكلمين فيها مذهب إلا أهل السنة، لأنهم قَصَروا كلامهم على ما جاءت به النصوص، ولم يتعمّقوا ولم يتنطّعوا فكان مذهبهم العدل بين المذاهب وقولهم الوسط بين الأقوال.

وممّا يعرفه أهل السنّة أنّ أنواع التوحيد الثلاثة الّتي تحدث عنها الكتاب والسنّة مرتبطة ارتباطا وثيقا يدل بعضهاعلى بعض ويضمّن بعضها بعضا، كما قرره أئمّة السلف في غير موضع.

ومما جاء فيه هذه الآية العظيمة الّتي جات في ختم سياق يتحدث عن الربوبية ، قال تعالى:

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ
عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ
تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ
خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ
وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ

لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى
اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ
وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ
لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ
حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾
وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[النحل: ١-١٦]، وبعد أن قرّر لهم ما لا ينكرونه من هذه الآيات العيانية أنكر عليهم عبادة غير الله وتسويتهم غير الله به تعالى، فقال: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل: ١٧].

وبعد ذلك عاد السياق إلى تقرير توحيد الألوهية ، وهذا يبين لك منزلة الإيمان بهذه الصفة وما دلت عليه من أمور الربوبية والألوهية بل والأسماء والصفات كذلك.

ولهذا اخترت هذه الآية لتكون محلّ بحثنا في صفة الخلق وعلاقتها بأنواع التوحيد الثلاثة، وذلك في فصلين.

الفصل الأول: تعريف بالخلق وبأنواع التوحيد.

الفصل الثاني: ارتباط صفة الخلق بأنواع التوحيد

تمهيد: أقوال المفسرين في الاية إجمالاً

قال الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره لعبدة الأوثان والأصنام: أفمن يخلق هذه الخلائق العجيبة، التي عددناها عليكم، ويُنعم عليكم هذه النعم العظيمة، كمن لا يخلق شيئاً، ولا ينعم عليكم نعمة صغيرة ولا كبيرة».

وقال الماتريدي: «يحتمل هذا وجهين:

أحدهما: على الاحتجاج عليهم؛ أي: لا تجعلوا من لا يخلق ولا ينفع ولا ينعم كمن هو خالق الأشياء كلها؛ منعم النعم عليكم، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: إن صرف العبادة والشكر إلى غير خالقكم وغير منعمكم جور وظلم.

والثاني: يخرج مخرج تسفيه أحلامهم؛ أنهم يعبدون من يعلمون أنه ليس بخالق، ويتركون عبادة من يعلمون أنه خالق الأشياء كلها، أفلا تذكرون والله أعلم».

قال الرازي: «المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل الدالة على وجود القادر الحكيم على الترتيب الأحسن والنظم الأكمل وكانت تلك الدلائل كما أنها كانت دلائل، فكذلك أيضاً كانت شرحاً وتفصيلاً لأنواع نعم الله تعالى وأقسام إحسانه أتبعه بذكر إبطال عبادة غير الله تعالى والمقصود أنه لما دلت هذه الدلائل الباهرة، والبينات الزاهرة القاهرة على وجود إله قادر حكيم، وثبت أنه هو المولى لجميع هذه النعم والمعطي لكل هذه الخيرات فكيف يحسن في العقول الاشتغال بعبادة موجود سواه لا سيما إذا كان ذلك الموجود جمادا لا يفهم ولا يقدر، فلهذا الوجه قال بعد تلك الآيات: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١-١٧]

والمعنى: أَفَمن يخلق هذه الأشياء التي ذكرناها كمن لا يخلق؟ بل لا يقدر البتة على شيء أفلا تذكرون، فإن هذا القدر لا يحتاج إلى تدبّر وتفكّر ونظر، ويكفي فيه أن تتنبهوا على ما في عقولكم من أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم، وأنتم ترون في الشاهد إنساناً عاقلاً فاهماً ينعم بالنعمة العظيمة، ومع ذلك فتعلمون أنه يقبح عبادته فهذه الأصنام جمادات محضة، وليس لها فهم ولا قدرة ولا اختيار فكيف تقدمون على عبادتها، وكيف تجوزون الاشتغال بخدمتها وطاعتها.

المسألة الثانية: المراد بقوله: ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ الأصنام، وأنها جمادات فلا يليق بها لفظة «من» لأنها لأولي العلم. وأجيب عنه من وجوه:

الوجه الأول: أن الكفار لما سموها آلهة وعبدوها، لا جرم أجريت مجرى أولي العلم ألا ترى إلى قوله على أثره: والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون.

والوجه الثاني: في الجواب أن السبب فيه المشاكلة بينه وبين من يخلق.

والوجه الثالث: أن يكون المعنى أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم فكيف من لا علم عنده كقوله: ألهم أرجل يمشون بها يعني أن الآلهة التي تدعونها حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب، لأن هؤلاء أحياء وهم أموات فكيف يصح منهم عبادتها، وليس المراد أنه لو صحت لهم هذه الأعضاء لصح أن يعبدوا.

فإن قيل: قوله: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ المقصود منه إلزام عبدة الأوثان، حيث جعلوا غير الخالق مثل الخالق في التسمية بالإله، وفي الاشتغال بعبادتها، فكان حق الإلزام أن يقال: ﴿أفمن لا يخلق كمن يخلق﴾.

والجواب: المراد منه أن من يخلق هذه الأشياء العظيمة ويعطي هذه المنافع الجليلة كيف يُسَوّى بينه وبين هذه الجمادات الخسيسة في التسمية باسم الإله، وفي الاشتغال بعبادتها والإقدام على غاية تعظيمها فوقع التعبير عن هذا المعنى بقوله: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُ ﴾».

وقال ابن عادل: «لما ذكر الدلائل الدالة على وجود الإله القادر الحكيم، أتبعه بذكر إبطال عبادة غير الله - تعالى - والمقصود أنه لما دلت الدلائل القاهرة على وجود إله قادر حكيم، وثبت أنه هو المولي لجميع هذه النعم، والمعطي لكل هذه الخيرات، فكيف يحسن في العقول الاشتغال بعبادة غيره، لا سيما إن كان غيره جمادا لا يفهم، ولا يعقل؟

فلهذا قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ ﴾ هذه الأشياء التي ذكرناها ﴿كَمَن لَّا يَخۡلُقُ ﴾ ، أي كمن لا يقدر على شيء ألبتة».

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ ﴾ هو الله تعالى، ﴿كَمَن لَّا يَخۡلُقُ ﴾ يريد الأصنام، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أخبر عن الأوثان التي لا تخلق ولا تضر ولا تنفع، كما يخبر عمن يعمل على ما تستعمله العرب في ذلك، فإنهم كانوا يعبدونها فذكرت بلفظ(من) كقوله: ﴿ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ ﴾[الأعراف: ١٩٥].

وقيل: لاقتران الضمير في الذكر بالخالق، قال الفراء: هو كقول العرب: اشتبه عليّ الراكب وجمله فلا أدري من ذا ومن ذا، وإن كان أحدهما غير إنسان، قال المهدوي: ويسأل بـ(من) عن البارئ تعالى ولا يسأل عنه بـ(ما)، لأن (ما) إنما يسأل بها عن الأجناس، والله تعالى ليس بذي جنس، ولذلك أجاب موسى عليه السلام حين قال له:﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾[طه: ٤٩] ولم يجب حين قال له: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الشعراء: ٢٣] إلا بجواب (من) وأضرب عن جواب (ما) حين كان السؤال فاسدا، ومعنى الآية: مَن كان قادرا على

خلق الأشياء المتقدمة الذكر كان بالعبادة أحَقّ ممن هو مخلوق لا يضر ولا ينفع،﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ ﴾[لقمان: ١١] ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾[فاطر: ٤٠]».

وقال أبو حيان: «ذكر تعالى التباين بين من يخلق وهو الباري تعالى، وبين من لا يخلق وهي الأصنام، ومن عبد ممن لا يعقل، فجدير أن يفرد بالعبادة من له الإنشاء دون غيره، وجيء بـ(من) في الثاني لاشتمال المعبود غير الله على من يعقل وما لا يعقل، أو لاعتقاد الكفّار أن لها تأثيراً وأفعالاً، فعوملت معاملة أولي العلم، أو للمشاكلة بينه وبين من يخلق، أو لتخصيصه بمن يعلم، فإذا وقعت البينونة بين الخالق وبين غير الخالق، من أولي العلم فكيف بمن لا يعلم البتة كقوله: ﴿ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ ﴾[الأعراف: ١٩٥] أي: أن آلهتهم منحطة عن حال من له أرجل، لأنّ من له هذه حي، وتلك أموات، فكيف يصح أن يعبد لا أن من له رجل يصح أن يعبد؟».

وقال صديق حسن خان: «لما عدّد الآيات الدالة على الصانع ووحدانيته وكمال قدرته أراد أن يوبخ أهل الشرك والعناد فقال: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ ﴾ هذه المخلوقات العجيبة العظيمة والمصنوعات الغريبة الجليلة ويفعل هذه الأفاعيل العجيبة المرئية بالعيان ﴿كَمَن لَّا يَخۡلُقُ ﴾ شيئاً منها ولا يقدر على إيجاد واحد منها، وهي هذه الأصنام التي يعبدونها ويجعلونها شركاء لله سبحانه».

قال الطاهر بن عاشور: «بعد أن أقيمت الدلائل على انفراد الله بالخلق ابتداء من قوله تعالى ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ وثبتت المنة وحق الشكر، فُرِّع على ذلك هاتان الجملتان لتكونا كالنتيجتين للأدلّة السابقة إنكاراً على المشركين، فالاستفهام عن المساواة إنكاري، أي لا يستوي من يخلق بمن لا يخلق، فالكاف للمماثلة، وهي مورد الإنكار حيث

جعلوا الأصنام آلهة شريكة لله تعالى، ومن مضمون الصلتين يعرف أي الموصولين أولى بالإلهية فيظهر مورد الإنكار.

وحين كان المراد بمن لا يخلق الأصنام كان إطلاق (من) الغالبة في العاقل مشاكلة لقوله ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ ﴾».

هذه خلاصة الأقوال المقولة في تفسير الاية ، والّذي يهمّنا فيها هو احتجاج القرآن على إنكار التسوية بين الله وغيره من ما يعبده المشركون بكون هذه المعلودات من دون الله لا تساويه في الاتصاف بصفة الخلق، فإذا كانوا يقرون – صاغرين– بأنّه تعالى هو الخالق وأن ما دون لا يخلق فضلاً عن كونه مخلوقا فكيف يُسوى بينه وبين الله في العبادة والقصد ؟ وهذا استدلال بديع بالصفة على التوحيد يدل على تلازم أنواع التوحيد الثلاثة ودلالة بعضها على بعض دون انفكاك كما سيأتي.

❁ ❁ ❁

الفصل الأول: تعريف بالخلق وبأنواع التوحيد.

مفردة (الخلق)

تدور معاني لفظ "خلق" وما تصرف منه حول ثلاثة أوجه: التقدير، والابتداع، والملاسة.

أما التقدير فمنه قولهم: خلقت الأديم للسقاء، إذا قدرته، ومنه قول بعضهم:

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري [(١)]

ومن ذلك الخلق، وهي السجية، لأن صاحبه قد قدر عليه، وفلان خليق بكذا، وأخلق به، أي: ما أخلقه، أي: هو ممن يقدر فيه ذلك، والخلاق: النصيب، لأنه قد قدر لكل أحد نصيبه.

والخلق في كلام العرب: ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه، وأصل الخلق التقدير فهو باعتبار تقدير ما منه وجودها وبالاعتبار للإيجاد على وفق التقدير خالق والخلق في كلام العرب ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه وكل شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه قال أبو بكر بن الأنباري[(٢)]: الخلق في كلام العرب على ضربين، أحدهما: الإنشاء على مثال أبدعه، والآخر: التقدير[(٣)].

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى المزني (٥٢٠ - ٦٠٩ م) أحد أشهر شعراء العرب وحكيم الشعراء في الجاهلية من قصيدة: (لمن الديار بقنة الحجر) ونسبه عامة من استشهد به من النحويين، كما في الكامل (٢/ ٦٩) وكتاب سيبويه (٢/ ٣٧).

(٢) محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الانباري: من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة، من كتبه (شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات) و (إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزوجل) توفي سنة (٣٢٨هـ)، الأعلام للزركلي (٦/ ٣٣٤).

(٣) تهذيب اللغة (٧/ ١٦).

وأما الملاسة فكما قيل: صخرة خلقاء، أي ملساء، ويقال اخلولق السحاب: استوى، ورسم مخلولق، إذا استوى بالأرض، والمخلق: السهم المصلح، ومن هذا الباب أخلق الشيء وخلق، إذا بلي، وأخلقته أنا: أبليته، وذلك أنه إذا أخلق املاس وذهب زئبره(١).

والقرآن استخدم هذه المفردة في مواردها، فجاء بمعنى الخلق والإيجاد من غير أصل ولا مثال سابق، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[الأنعام:١]، أي: أبدعها، بدلالة قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[البقرة:١١٧].

وجاء بمعنى إيجاد الشيء من شيء سابق، كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[النساء:١] ، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾[الأنعام:٢] ، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤-١٥] ، وقال على لسان عيسى: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [آل عمران:٤٩] وقال كذلك: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ [المائدة:١١٠].

واستعمله كذلك في الكذب كما في قوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[العنكبوت:١٧].

وكل موضع استعمل الخلق في وصف الكلام فالمراد به الكذب، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الشعراء:١٣٧] ، وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾[ص:٧].

والخلق يقال في معنى المخلوق، كما في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾[لقمان:١١].

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ١٧٣).

والخلق بالفتح والخلق بالضم في الأصل واحد، كالشرب والشرب، والصرم والصرم، لكن خص الخلق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخلق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤].

والخلاق: ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[البقرة:١٠٢][1].

طريقة السلف في الإيمان بصفة الخلق

وصف الله سبحانه نفسه بالخلق، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩] وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[الأنعام:١] وغيرها كثير.

وصفة الخلق التي وصف بها نفسه تعالى تتضمن الإيجاد من عدم، والتخليق من شيء سابق، وتتضمن التقدير، أما الصنع من شيء سابق والتقدير فقد يشاركه في الوصف به بعض الخلق، كما قال على لسان عيسى: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [آل عمران:٤٩] ، وأما الإيجاد من عدم فلا يشاركه فيه أحد، وهو الذي عناه تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر:٣] ، قال ابن الجوزي[2]: فإن قيل:

(١) انظر لما سبق: مفردات القرآن للراغب (١/ ٣٢٠).

(٢) عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي، أبو الفرج الواعظ المفسر، علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف، مولده ووفاته ببغداد، ونسبته إلى (مشرعة الجوز) من محالها، له نحو ثلاث مئة مصنف، منها المنتظم في التاريخ، وزاد المسير في التفسير، وغيرها، توفي سنة (٥٩٧هـ)، الأعلام للزركلي(٣/ ٣١٦).

كيف الجمع بين قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٤] وقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾[فاطر:٣] ؟

فالجواب: أن الخلق يكون بمعنى الإيجاد، ولا موجد سوى الله، ويكون بمعنى التقدير، كقول زهير:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ... ض القوم يخلق ثم لا يفري [(١)]

فهذا المراد هاهنا، أن بني آدم قد يصورون ويقدرون ويصنعون الشيء، فالله خير المصورين والمقدرين، وقال الأخفش: الخالقون هاهنا هم الصانعون، فالله خير الخالقين»[(٢)].

وسمى الله نفسه بالخالق، كما قال: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر:٢٤].

و بالخلاق كما قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الحجر:٨٦].

وهو ما لا يختلف فيه المسلمون في الجملة، أعني اتصافه بالخلق وإثبات اسمه الخالق ، قال ابن القيم رحمه الله: «ليس في المعلومات أظهر من كون الله خالقا، ولهذا أقرت به جميع الأمم، مؤمنهم وكافرهم، ولظهور ذلك، وكون العلم به بديهيا فطريا، احتج الله به على من أشرك به في عبادته، فقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[الزُّمر:٣٨]في غير موضع من كتابه، فعلم أن كونه سبحانه خالقا من أظهر شيء عند العقول،... وهو أصل كل حقيقة، فجميع الحقائق تنتهي إلى خلقه وإيجاده، فهو الذي خلق وهو الذي علم، كما قال

(١) سبق (ص١٥).

(٢) زاد المسير (٥/ ٤٦٣-٥٦٤).

تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥] فجميع الموجودات انتهت إلى خلقه وتعليمه»[١].

ورغم إطباق عامة أهل الإسلام على إثبات اسمه الخالق إلا أن للسلف منهجا متميزا عن غيرهم في ذلك متوافقا مع النقل النص القرآني وأصول الاستدلال العقلي الصحيح، وهذا المنهج يدور حول ثلاثة محاور:

الأول: أنهم يثبتون اسمه "الخالق" وما تضمنه الاسم من صفة الخلق، فأسماء الله ليست أعلاما محضة لا تدل على معنى ولا تتضمن صفة، قال ابن القيم[٢] رحمه الله: «وهذا شأن أسماء الرب تعالى وأسماء كتابه وأسماء نبيه هي أعلام دالة على معان هي بها أوصاف، فلا تضاد فيها العلمية الوصف، بخلاف غيرها من أسماء المخلوقين فهو الله الخالق البارئ المصور القهار فهذه أسماء دالة على معان هي صفاته... وكذلك أسماء الرب تعالى كلها أسماء مدح ولو كانت ألفاظا مجردة لا معاني لها لم تدل على المدح وقد وصفها الله سبحانه بأنها حسنى كلها فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] فهي لم تكن حسنى لمجرد اللفظ بل لدلالتها على أوصاف الكمال،... وفي السنن من حديث أبي بن كعب قراءة القرآن على سبعة أحرف ثم قال: «ليس منهن إلا شاف كاف إن قلت سميعا عليما عزيزا حكيما ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية

(١) مختصر الصواعق المرسلة (ص٣٤٦).

(٢) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين: من أركان الاصلاح الاسلامي، وأحد كبار العلماء. مولده ووفاته في دمشق، تتلمذ لشيخ الاسلام ابن تيمية وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه، وألف تصانيف كثيرة من أشهرها (زاد المعاد)، توفي سنة (٧٥١) هـ، الأعلام للزركلي (٦/ ٥٦).

رحمة بعذاب»[1] ولو كانت هذه الأسماء أعلاما محضة لا معنى لها لم يكن فرق بين ختم الآية بهذا أو بهذا.

وأيضا فإنه سبحانه يعلل أحكامه وأفعاله بأسمائه ولو لم يكن لها معنى لما كان التعليل صحيحا كقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ [نوح: ١٠] وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٢٦ وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧].

وأيضا فإنه سبحانه يستدل بأسمائه على توحيده ونفي الشرك عنه ولو كانت أسماء لا معنى لها لم تدل على ذلك كقول هارون لعبدة العجل: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [طه: ٩٠].

وأيضا فإن الله تعالى يعلق بأسمائه المعمولات من الظروف والجار والمجرور وغيرهما ولو كانت أعلاما محضة لم يصح فيها ذلك كقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [الحجرات: ١٦] ونظائره كثيرة.

وأيضا فإنه سبحانه يجعل أسماءه دليلا على ما ينكره الجاحدون من صفات كماله كقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وقد اختلف النظار في هذه الأسماء هل هي متباينة نظرا إلى تباين معانيها وأن كل اسم يدل على غير ما يدل عليه الآخر، أم هي مترادفة لأنها تدل على ذات واحدة فمدلولها لا تعدد فيه؟ وهذا شأن المترادفات والنزاع لفظي في ذلك، والتحقيق أن يقال: هي مترادفة بالنظر إلى

(١) أخرجه أحمد (ح ٢١١٥٠) وأبوداود (ح ١٤٧٧) والنسائي (ح ٩٤٠)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في الصحيحة (ح ٢٥٨١).

الذات، متباينة بالنظر إلى الصفات، وكل اسم منها يدل على الذات الموصوفة بتلك الصفة بالمطابقة، وعلى أحدهما وحده بالتضمن، وعلى الصفة الأخرى بالالتزام»[1].

ويثبتون اسم الله الخالق على الحقيقة، لا المجاز كما قاله بعض المعتزلة[2].

الثاني: الإيمان بدوام اتصافه بالخلق أزلا وأبدا.

ولا أدل على ذلك من قوله تعالى في وصف نفسه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٨٦] ، فإن ذلك يدل على صدور الخلق عنه خلقا بعد خلق، وهو موصوف بذلك أزلا وأبدا، فدل على أزلية مخلوقاته وأبديتها، أعني نوعها، ولا يلزم منه مقارنة مخلوق بعينه لله تعالى بل كل مخلوق فهو مسبوق بالعدم والله تعالى قبله، قال ابن القيم رحمه الله: «وقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] دليل على أمور، أحدها: أنه سبحانه يفعل بإرادته ومشيئته، الثاني: أنه لم يزل كذلك، لأنه لم لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه، وأن ذلك من كماله سبحانه، فلا يجوز أن يكون عادما لهذا الكمال في وقت من الأوقات، وقد قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل: ١٧] وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثا بعد أن لم يكن»[3].

والله تعالى إنما يخلق الخلق بمشيئة واختيار، ولا يصدر الخلق عنه كما صدور المعلول عن علته،كما يقوله الفلاسفة ومن حذا حذوهم، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ويذكرون في كونه موجبا بذاته وفاعلا بمشيئته وقدرته قولين فاسدين، أحدهما: قول من يقول المتفلسفة وإن معلوله يجب أن يكون مقارنا له في الزمان أزلا وأبدا.

---

(١) جلاء الأفهام (ص١٧١).

(٢) العواصم والقواصم (٧/ ٩٠-٩٢) بتصرف يسير، وكذلك ابن جني وشيخه أبو علي لهم نفس الدعوى، انظر مختصر الصواعق لابن القيم (٢/ ٨٣٠ - ٨٣٤).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (ص٥٧).

والثاني: قول من يقول: إنه فاعل مختار لكنه يفعل بوصف الجواز فيرجح أحد المتماثلين على الآخر بلا مرجح، إما بمجرد كونه قادرا، أو لمجرد كونه قادرا عالما، أو لمجرد إرادته القديمة التي ترجح مثلا على مثل بلا مرجح، ويقولون: إن الحوادث تحدث بعد أن لم تكن حادثة من غير سبب يوجب الحدوث فيقولون بتراخي الأثر عن المؤثر التام، وهذا وإن كان خيرا من الذي قبله ففساده أيضا بين.

والقول الثالث: قول أئمة السنة: إنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فما شاء الله وجب بمشيئته وقدرته، وما لم يشأه امتنع لعدم مشيئته له، فهو موجب بمشيئته وقدرته لا بذات خالية عن الصفات، وهو موجب له إذا شاءه لا موجب له في الأزل كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وهذا الإيجاب مستلزم لمشيئته وقدرته لا مناف لذلك، بل هو سبحانه يخلق ما يشاء ويختار، فهو فاعل لما يشاؤه إذا شاء، وهو موجب له بمشيئته وقدرته»(١).

الثالث: الإيمان بعموم خلقه تعالى

كما قال عزوجل: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠١] ، وقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] ، وقال: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٦].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٣٢٤).

قال شيخ الإسلام: «وأصل ذلك تقريرهم: أن الله خالق كل شيء ولا خالق غيره، وهذا مذهب سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة، وهو أحسن ما امتاز به الأشعري [1] عن طوائف المتكلمين وبالغ في ذلك حتى جعل أخص أوصاف الرب القدرة على الاختراع وزعم أن هذا معنى الإلهية»[2].

ونلحظ فيما ذكره شيخ الإسلام ربطه بين عموم خلقه وبين انفراده بالخلق، فلا خالق إلا هو سبحانه، قال السفاريني رحمه الله: «فكل ما سواه سبحانه بأسمائه وصفاته محدث مسبوق بالعدم، وهذا المتفق عليه عند سلف الأمة وأئمتها من أن الله تعالى خالق كل شيء وربه ومليكه، وأنه خالق كل شيء بقدرته ومشيئته، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو سبحانه وتعالى خالق الممكنات المحدثات من الأجسام والأعراض القائمة بالحيوان والجماد والمعادن والنبات وغيرها.

وهذا الذي دلت عليه الكتب المنزلة، وأخبرت به الرسل المرسلة وعليه سلف الأمة وأئمتها بل وعليه جماهير العقلاء وأكابرهم من جميع الطوائف»[3].

---

(١) إمام المتكلمين أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر، من ولد أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أخذ عن أبي علي الجمحي وأبي علي الجبائي المعتزلي وأخذ السنة عن زكريا الساجي وغيره، نشأ معتزليا ثم تحول بعد أربعين سنة إلى مذهب ابن كلاب، توفي سنة (٣٢٤هـ)، انظر السير (١٥/ ٨٥) وطبقات الشافعية للسبكي (٣/ ٣٤٧).

(٢) بغية المرتاد (ص٢٦١).

(٣) لوامع الأنوار (١/ ٢٧٧).

• التوحيد وأنواعه عند السلف.

التوحيد مصدر وحد يوحد توحيدا، أي جعل الشيء المتعدد واحدا، والمقصود به هنا إفراد الله بكل ما لا يستحقه إلا هو تعالى من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات[١].

ولا شك أن منزلة التوحيد من الدين بمثابة القلب في الجسد، والأساس في البناء، فلا يقبل الله من الناس دينا يدينون به إذا اختل فيه هذا الأساس، ولهذا كثرت دلائله في الكتاب والسنة، وتنوعت طرق البيان له، وتواتر عن السلف الحث على الاهتمام به والدفاع عنه، وكثرت في ذلك أقاويلهم حتى صنفت فيه المصنفات، التي تنقل النصوص وآثار السلف في التوحيد وأهميته وأنواعه وأدلته، قال ابن أبي العز: «التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف:٥٩]، وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف: ٦٥]، وقال صالح عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[الأعراف: ٧٣]، وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٢٥].

وقال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله»[٢]، ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله...

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص١٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح٢٥)، ومسلم (ح٢٠) عن ابن عمر - رضي الله عنه - .

فالتوحيد أول ما يدخل في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة». وهو أول واجب وآخر واجب، فالتوحيد أول الأمر وآخره»(١).

ولما تقادم العهد بزمن الصحابة بعد موت النبي ﷺ بدأت البدع تطل برؤوسها، وحدثت في الناس المحدثات في الدين، سواء في أبواب التوحيد أو في العبادات، وكان من ضمن ذلك أن جهل كثير من الناس مراد الله ورسوله في أبواب من التوحيد، بعد أن تكلم فيه أهل الكلام متأثرين بفلسفة اليونان، وتكلم فيه المتصوفة كذلك، فجهل الناس حقيقة التوحيد الذي بعثت به الرسل من نوح عليه السلام وحتى نبينا ﷺ، فوقع كثير من الناس في الشرك صغيره وكبيره بسبب ذلك الجهل، فكان من عمل الأئمة المهتدين أن قاموا ببيان الملة، وشرح الشرائع وبيانها، وتفصيل الأحكام والاستدلال عليها، ومن ضمن ذلك بيان التوحيد وأنه ثلاثة أنواع، فنوع منه يتضمن الكلام في الله وتفرده بالربوبية، ونوع منه يضمن الكلام في إثبات ما يستحقه من الأسماء والصفات وتنزيهه عن كل نقص، ونوع منه يتضمن الكلام في وجوب إفراده بالألوهية والعبادة ونبذ كل معبود سواه، ومن العلماء من يدمج الأول والثاني في نوع واحد، قال ابن أبي العز: «ثم التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان: توحيد في الإثبات والمعرفة، وتوحيد في الطلب والقصد.

فالأول: هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه، ليس كمثله شيء في ذلك كله، كما أخبر به عن نفسه، وكما أخبر رسوله ﷺ.. والثاني: وهو توحيد الطلب والقصد»(٢)، وقال قبل ذلك: «التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع: أحدها: الكلام في الصفات،

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص٧٧).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص٨٩) .

والثاني: توحيد الربوبية، وبيان أن الله وحده خالق كل شيء. والثالث: توحيد الإلهية، وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له»(١).

وقال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: «وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده في ربوبيته، وهذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[الزخرف:٨٧] والآيات الدالة على ذلك كثيرة جدا.

الثاني: توحيده جل وعلا في عبادته. وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى "لا إله إلا الله" وهي متركبة من نفي وإثبات؛ فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت. ومعنى الإثبات منها: إفراد الله جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام. وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[ص:٥]).

النوع الثالث: توحيده جل وعلا في أسمائه وصفاته. وهذا النوع من التوحيد ينبني على أصلين:

الأول: تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١].

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص٧٨).

والثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه؛ أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم على الوجه اللائق بكماله وجلاله؛ كما قال بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١]، مع قطع الطمع عن إدراك كيفية الاتصاف»[١].

وكان من أخطر ما ضل فيه أهل الأهواء في التوحيد هو الجهل بالتوحيد الذي كان محل الخلاف بين الرسل وأعدائهم، ألا وهو توحيد العبادة والإرادة والقصد، أما الربوبية فقل من خالف فيها، بل كانوا يقرون بها في الجملة كما سيأتي بيانه، ولكن الخلاف الحقيقي كان إفراده تعالى بالعبودية، ومع هذا نجد أهل الكلام والتصوف وغيرهم يتعبون أنفسهم في تقرير ما لا ينكره أحد من وجوده سبحانه وربوبيته ويجهلون حقيقة ما جاء به النبي ﷺ من توحيد الألوهية، قال ابن أبي العز: «فعلم أن التوحيد المطلوب هو توحيد الإلهية، الذي يتضمن توحيد الربوبية. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم: ٣٠]... فلو أقر رجل بتوحيد الربوبية، الذي يقر به هؤلاء النظار، ويفنى فيه كثير من أهل التصوف، ويجعلونه غاية السالكين، كما ذكره صاحب "منازل السائرين" وغيره، وهو مع ذلك إن لم يعبد الله وحده ويتبرأ من عبادة ما سواه – كان مشركا من جنس أمثاله من المشركين»[٢].

وهذا هو أكبر أسباب انتشار أقوال وأعمال الشرك في القرون المتأخرة ومنها الشرك الأكبر المخرج من الملة، إذ يقع الناس فيه ولا يعلمون أنهم مشركون به لأنه قد رسخ في تصوراتهم أن معنى لا إله إلا الله أي لا خالق إلا الله، وظنوا التوحيد هو توحيد الربوبية فقط وجهلوا غيره، ومن هنا كان جهاد المجددين من أئمة السلف وأتباعهم في بيان ما جهلوه من توحيد العبادة،

---

(١) مختصرا من أضواء البيان (١٧-٢١).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص٨٥).

وكذلك مالحق النوعين الآخرين من الجهالات والتحريفات التي سهلت ويسرت إضلال الناس في توحيد العبادة ووقوعهم في الشرك.

وكان من طرق أهل السنة في إقامة الدلائل على أنواع التوحيد تبعا لطريقة القرآن هو الاستدلال بالبراهين العقلية والأدلة الفطرية على ربوبية الله وألوهيته وأسمائه وصفاته، ومن تلك الطرق الاستدلال به عليه، أي الاستدلال بكمالاته على كمالاته، فكل كمال يثبت فيحقه تعالى يدل على غيره من أنواع الكمال، قال ابن أبي العز: «ومن أسمائه تعالى "المؤمن" وهو في أحد التفسيرين: المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم، فإنه لا بد أن يري العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغه رسله حق. قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[فصلت: ٥٣]، أي القرآن، فإنه المتقدم في قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[فصلت: ٥٢]، ثم قال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

فشهد سبحانه لرسوله بقوله أن ما جاء به حق، ووعد أنه يري العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضا. ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك كله وأجل، وهو شهادته سبحانه بأنه على كل شيء شهيد، فإن من أسمائه "الشهيد" الذي لا يغيب عنه شيء، ولا يعزب عنه، بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له، عليم بتفاصيله، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته، والأول استدلال بقوله وكلماته، واستدلاله بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته.

فإن قلت: كيف يستدل بأسمائه وصفاته، فإن الاستدلال بذلك لا يعهد في الاصطلاح؟

فالجواب: أن الله تعالى قد أودع في الفطرة التي لم تتنجس بالجحود والتعطيل، ولا بالتشبيه والتمثيل، أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسله، وما خفي عن الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه، ومن كماله المقدس شهادته

على كل شيء واطلاعه عليه بحيث لا يغيب عنه ذرة في السماوات ولا في الأرض باطنا وظاهرا: ومن هذا شأنه كيف يليق بالعباد أن يشركوا به، وأن يعبدوا غيره، ويجعلوا معه إلها آخر؟ وكيف يليق بكماله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثم ينصره على ذلك ويؤيده ويعلي شأنه، ويجيب دعوته ويهلك عدوه، ويظهر على دينه من الآيات والبراهين ما يعجز عن مثله قوى البشر، وهو مع ذلك كاذب عليه مفتر؟!

ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء وقدرته وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك، ومن جوز ذلك فهو من أبعد الناس عن معرفته.

والقرآن مملوء من هذه الطريق، وهي طريق الخواص، يستدلون بالله على أفعاله وما يليق به أن يفعله ولا يفعله. قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]، وسيأتي لذلك زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

ويستدل أيضا بأسمائه وصفاته على وحدانيته وعلى بطلان الشرك، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]، وأضعاف ذلك في القرآن، وهذه الطريق قليل سالكها، لا يهتدي إليها إلا الخواص. وطريقة الجمهور الاستدلال بالآيات الشاهدة، لأنها أسهل تناولا وأوسع، والله سبحانه يفضل بعض خلقه على بعض»[١].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص٩٤-٩٦).

الفصل الثاني: دلالة صفة الخلق لله تعالى على أنواع التوحيد

أولاً: دلالة صفة الخلق على الربوبية

على الرغم من اتفاق أهل الإسلام بل وأهل الشرك في الجملة على الإقرار بربوبية الله تعالى، فقد سلك السلف الصالح في تقرير الربوبية مسلك القرآن الكريم في تقريرها وإثباتها والحديث عنها.

ومن أعظم دلائل الربوبية وأظهرها وأكثرها حضورا في النص القرآني خلق الله تعالى، فإن دلالة الخلق على الخالق تشمل وجوده تعالى وكماله ربوبيته، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، فجمع بين الإشارة له بالربوبية والألوهية وبين خلقه تعالى كل شيء، في إشارة إلى استحقاقه بالخلق للإقرار بالربوبية.

ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فتعرف إلى الخلق بالربوبية واستحقاقه لها شارحا لهذا الاستحقاق بكونه تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض ومافيهما.

وبين في آية أخرى ارتباط الخلق بالربوبية بصورة أشمل كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]، فربوبيته تعالى على خلقه كلهم الثابتة بخلقه لهم تشمل الملك كما تشمل التدبير، قال ابن سعدي: «في العالم العلوي والسفلي من الإماتة والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومداولة الأيام بين الناس، وكشف الضر عن المضرورين، وإجابة سؤال السائلين، فأنواع التدابير نازلة منه وصاعدة إليه، وجميع الخلق مذعنون لعزه خاضعون لعظمته وسلطانه»(١)، ويشهد له قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٥٧).

جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ [الزمر: ٦].

وقال تعالى: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: ٥٦]، فربوبيته للسماوات والأرض وما فيهن تبع لكونه هو الذي ابتدأ خلقهن، قال ابن كثير: «أي: ربكم الذي لا إله غيره، هو الذي خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات الذي ابتدأ خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء»(١).

﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤]

والرب هو المالك المتصرف المدبر، ودلالة الخلق على هذه المعاني كلها مجتمعة، فإن الله تعالى إذا كان هو الخالق فإن هذا الخلق في تنوعه واختلافه وفي تصرفه وبقائه دليل على ملك الله المطلق، ودليل على أنه لم يتركه هملا بل هو قائم عليه بالليل والنهار يدبره ويصرفه، وهو الذي يربي خلقه بآلائه ونعمه، ويحفظه من الفساد والخراب، ولذلك يستدل القرآن بهذا كثيرا، كما قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢١-٢٢].

قال ابن سعدي: «أي: الذي خلقكم من أصل واحد ومادة واحدة وبثكم في أقطار الأرض وأرجائها ففي ذلك آيات على أن الذي أنشأكم من هذا الأصل وبثكم في أقطار الأرض هو الرب المعبود الملك المحمود والرحيم الودود»(٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٤٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٦٣٩).

وقال: «فمن آيات خلق السماوات والأرض وما فيهما، أن ذلك دال على عظمة سلطان الله وكمال اقتداره الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وكمال حكمته لما فيها من الإتقان وسعة علمه،...وعموم رحمته وفضله لما في ذلك من المنافع الجليلة، وأنه المريد الذي يختار ما يشاء لما فيها من التخصيصات والمزايا، وأنه وحده الذي يستحق أن يعبد ويوحد لأنه المنفرد بالخلق»[١].

وقال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، قال ابن أبي العز: «ولما كان الشرك في الربوبية معلوم الامتناع عند الناس كلهم باعتبار إثبات خالقين متماثلين في الصفات والأفعال؛ وإنما ذهب بعض المشركين إلى أن ثم خالقا خلق بعض العالم كما يقوله الثنوية[٢] في الظلمة، وكما يقوله القدرية في أفعال الحيوان[٣] وكما يقوله الفلاسفة الدهرية في حركة الأفلاك أو حركات النفوس أو الأجسام الطبيعية[٤] فإن هؤلاء يثبتون أمورا محدثة بدون أحداث الله إياها، فهم مشركون في بعض الربوبية، وكثير من مشركي العرب وغيرهم قد يظن في آلهته شيئا من نفع أوضر بدون أن يخلق الله ذلك.

فلما كان هذا الشرك في الربوبية موجودا في الناس بين القرآن بطلانه كما في قوله تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١] فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز الظاهر، فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقا فاعلا يوصل إلى عابده النفع، ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركه في

---

(١) السابق.

(٢) مذهب من يزعم أن النور والظلمة أزليان قديمان متساويان في القدم واختلافهما في الجوهر والطبع والفعل، انظر الملل والنحل(٢/ ٢٦٨).

(٣) مقالات الإسلاميين (١/ ٢٩٨).

(٤) الملل والنحل للشهرستاني (٢/ ١٩١).

ملكه لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة، بل إن قدر على قهر ذلك الشريك وتفرده بالملك والإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه إذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه... وانتظام أمر العالم كله واحكام أمره من أدل دليل على أن مدبره إله واحد، وملك واحد، ورب واحد لا إله للخلق غيره، ولا رب لهم سواه،كما قد دل دليل التمانع على أن خالق العالم واحد لا رب غيره ولا إله سواه»(١).

الخلق والهداية

مما أرشدت إليه آيات القرآن أن الهداية واحد من أهم استحقاقات الخلق، بمعنى أن الخالق جل علا لكمال علمه وحكته ورحمته لم يترك خلقه دون هداية، بل هدايات متنوعة، دلهم بها على ما يصلحهم ويصلح لهم من أنواع الألطاف والعنايات، مما يصلح الدنيا لعامة الخلق، والآخرة للمكلفين منهم، وهذا من أفعال الرب.

ففي الهداية العامة قال تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣]، وأصرح منها قوله لسان موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، قال ابن جرير رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: قال موسى له مجيبا: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه، يعني: نظير خلقه في الصورة والهيئة كالذكور من بني آدم. أعطاهم نظير خلقهم من الإناث أزواجا، وكالذكور من البهائم، أعطاها نظير خلقها، وفي صورتها وهيئتها من الإناث أزواجا، فلم يعط الإنسان خلاف خلقه، فيزوجه بالإناث من البهائم، ولا البهائم بالإناث من الإنس، ثم هداهم للمأتي الذي منه النسل والنماء كيف يأتيه، ولسائر منافعه من المطاعم والمشارب، وغير

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص٨٦-٨٧).

ذلك»[1]، وذكر أقوالاً أخرى في الآية تدل على قدر مشترك وهو هداية الله لكل خلقه لما يصلحهم، قال ابن سعدي: «أي: ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، الدال على حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه، وجميع صفاته، ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية العامة المشاهدة في جميع المخلوقات فكل مخلوق، تجده يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيم من العقل، ما يتمكن به على ذلك»[2].

قال ابن القيم رحمه الله: «وهو سبحانه في القرآن كثيرا ما يجمع بين الخلق والهداية كقوله في أول سورة أنزلها على رسوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥] وقوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤] وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ٨-١١] وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢-٣] وقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠] ثم قال: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [النمل: ٦٣] فالخلق إعطاء الوجود العيني الخارجي، والهدى إعطاء الوجود العلمي الذهني، فهذا خلقه وهذا هداه وتعليمه»[3].

---

(١) جامع البيان (١٨/ ٣١٦).

(٢) تيسير الكريم المنان (١/ ٥٠٦).

(٣) شفاء العليل (ص٧٩).

وقال كذلك: «الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] أي أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطى كل عضو شكله وهيئته، وأعطى كل موجود خلقه المختص به، ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال، وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، وهداية الجماد المسخر لما خلق له، فله هداية تليق به،كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به وإن اختلفت أنواعها وصورها.

وكذلك كل عضو له هداية تليق به، فهدى الرجلين للمشي، واليدين للبطش والعمل، واللسان للكلام، والأذن للاستماع، والعين لكشف المرئيات، وكل عضو لما خلق له، وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل وتربية الولد، وهدى الولد إلى التقام الثدي عند وضعه وطلبه، ومراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو فتبارك الله رب العالمين.

وهدى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومن الأبنية، ثم تسلك سبل ربها مذللة لها لا تستعصي عليها، ثم تأوي إلى بيوتها، وهداها إلى طاعة يعسوبها واتباعه والائتمام به أين توجه بها، ثم هداها إلى بناء البيوت العجيبة الصنعة المحكمة البناء، ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة في العالم شهد له بأنه الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم.

وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوة بأيسر نظر وأول وهلة، وأحسن طريق، وأخصرها وأبعدها من كل شبهة، فإن من لم يهمل هذه الحيوانات سدى ولم يتركها معطلة، بل هداها إلى هذه الهداية التي تعجز عقول العقلاء عنها كيف يليق به أن يترك النوع الإنساني الذي هو خلاصة الوجود الذي كرمه وفضله على كثير من خلقه مهملا وسدى معطلا لا يهديه إلى أقصى كمالاته، وأفضل غاياته، بل يتركه معطلا لا يأمره ولا ينهاه، ولا يثيبه ولا يعاقبه، وهل

هذا إلا مناف لحكمته ونسبته له مما لا يليق بجلال»[1]، وقد ساق رحمه الله صورا عديدة وأمثلة لهذه الهداية في كتابه شفاء العليل تدل على موجب هذه الهداية العامة.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، قال ابن كثير رحمه الله: «أي: هو الخالق الذي قدر قدرا، وهدى الخلائق إليه، فكل يجري على ما قدر، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء»[2].

وقال الآلوسي: «أي: فهو يهديني وحده جل شأنه إلى كل ما يهمني ويصلحني من أمور المعاش والمعاد هداية متصلة بحين الخلق ونفخ الروح متجددة على الاستمرار -كما ينبىء عنه الفاء وصيغة المضارع- فإنه تعالى يهدي كل ما خلقه لما خلق له هداية متدرجة من مبتدأ إيجاده إلى منتهى أجله، يتمكن بها من جلب منافعه ودفع مضاره، إما طبعا وإما اختيارا، مبدؤها بالنسبة إلى الإنسان هداية الجنين لامتصاص دم الطمث في المشهور، ومنتهاها الهداية إلى طريق الجنة والتنعم بنعيمها المقيم» ثم قال: «وتسبب الخلق للهداية بمقتضى الحكمة»[3].

ونحوها قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٧]، قال ابن جرير: «يقول: إني بريء مما تعبدون من شيء إلا من الذي فطرني، يعني الذي خلقني ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ يقول: فإنه سيقومني للدين الحق، ويوفقني لاتباع سبيل الرشد»[4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل: ١٢]، والأشهر فيها يعني البيان، قال الزجاج: علينا أن

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٧١-٢٧٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٤٦).

(٣) روح المعاني (١٠/ ٩٤).

(٤) جامع البيان(٢١/ ٥٨٨).

نبين طريق الهدى من طريق الضلال، وهو قول قتادة، قال: على الله بيان حلاله وحرامه[1]، ويؤيده قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وقوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «فيه التزام من الله عز وجل أن يبين للخلق ما يهتدون به إليه، والمراد بالهدى هنا: هدى البيان والإرشاد فإن الله تعالى التزم على نفسه بيان ذلك حتى لا يكون للناس على الله حجة وهذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ إلى أن قال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] فلا يمكن للعقل البشري أن يستقل بمعرفة الهدى، ولذلك التزم الله عز وجل بأن يبين الهدى للإنسان»[2].

وخلاصة المبحث، أن الله تعالى أوجب على نفسه نفسه فضلاً وتكرماً أن يهدي خلقه لما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، وهدى الإنس والجن هداية مخصوصة فيها بيان ما يرضاه منهم وما لا يرضاه لأنهم مكلفون مجزيون على أعمالهم، وهذا من كمال صفة الخلق التي اتصف بها، فهو يخلق ويهدي ولا يترك خلقه سدى ولا هملا سبحانه وتعالى.

الفطرة

ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل

---

(١) انظر تفسير ابن جرير (٢٤/ ٤٧٧).

(٢) تفسير القرآن-جزء عمّ- (٢٢٩).

تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠](١).

وهذا الحديث مما اختلف في تفسيره شراحه، والذي عليه عامة السلف أن المراد بالفطرة هنا الإسلام، وقد فسرته الروايات الأخرى: «ما من مولود يولد إلا وهو على الملة» و «إلا على هذه الملة»(٢).

قال ابن حجر رحمه الله: «أشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام، قال ابن عبد البر: وهو المعروف عند عامة السلف، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ الإسلام، واحتجوا بقول أبي هريرة في آخر حديث الباب: اقرؤوا إن شئتم ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ وبحديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم»(٣).

والأقوال عديدة لكن هذا هو أولاها بالصواب، وقيل إن المراد بالفطرة الخلقة، أي: يولد سالماً لا يعرف كفراً ولا إيماناً، ثم يعتقد إذا بلغ التكليف، ورجحه ابن عبد البر وقال: إنه يطابق التمثيل بالبهيمة ولا يخالف حديث عياض لأن المراد بقوله: ﴿حَنِيفٗا﴾ [الروم: ٣٠] أي على استقامة، وتعقب بأنه لو كان كذلك لم يقتصر في أحوال التبديل على ملل الكفر دون ملة الإسلام، ولم يكن لاستشهاد أبي هريرة بالآية معنى»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (ح١٣٥٨)، ومسلم (ح٢٦٥٨) .

(٢) صحيح مسلم (ح٢٦٥٨).

(٣) أخرجه مسلم (ح ٢٨٦٥).

(٤) فتح الباري (٣/ ٢٤٩) وانظر الاستذكار لابن عبدالبر (٣/ ١٠٠) وما بعدها.

ومن التأويلات المشهورة له من فسر الفطرة بأنه ما سبق له من شقاوة وسعادة، وقد روي عن بعض السلف منهم ابن المبارك [1]، وقال ابن القيم إن سبب اختلاف العلماء في معنى الفطرة في هذا الحديث أن القدرية كانوا يحتجون به على أن الكفر والمعصية ليسا بقضاء الله بل مما ابتدأ الناس إحداثه، فحاول جماعة من العلماء مخالفتهم بتأويل الفطرة على غير معنى الإسلام، ولا حاجة لذلك، لأن الآثار المنقولة عن السلف تدل على أنهم لم يفهموا من لفظ الفطرة إلا الإسلام، ولا يلزم من حملها على ذلك موافقة مذهب القدرية، لأن قوله: " فأبواه يهودانه إلخ" محمول على أن ذلك يقع بتقدير الله تعالى[2].

قال ابن تيمية معلقا على قول من فسرها بسبق العلم: «مقصود حماد و إسحاق و مالك و ابن المبارك ومن اتبعهم كابن قتيبة و ابن بطة و القاضي أبي يعلى وغيرهم هو منع احتجاج القدرية بهذا الحديث على نفي القدر وهذا مقصود صحيح ولكن سلكوا في حصوله طرقا بعضها صحيح وبعضها ضعيف» ثم قال: «والمقصود هنا أنهم تشعبوا في حديث الفطرة... وأصل مقصودهم من الإيمان بالقدر صحيح، لكن لا يجب مع ذلك أن يفسر القرآن والحديث إلا بما هو مراد الله ورسوله ويجب أن يتبع في ذلك ما دل عليه الدليل»[3].

وقال ابن القيم رحمه الله: «ومما ينبغي أن يعلم أنه إذا قيل أنه ولد على الفطرة أو على الإسلام أو على هذه الملة أو خلق حنيفا فليس المراد به أنه حين خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويريده فإنه الله يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨] ولكن فطرته موجبة مقتضية لدين الإسلام لقروبه ومحبته فنفس الفطرة تستلزم الإقرار

---

(١) فتح الباري (٣/ ٢٤٥) وانظر درء التعارض (٨/ ٤٥و٣٦٨) وما بعد.

(٢) انظر شفاء العليل (ص٢٨٧).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤١٧) وما بعد.

بخالقه ومحبته وإخلاص الدين له وموجبات الفطرة ومقتضياتها تحصل شيئا بعد شيء بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المعارض وليس المراد ايضا مجرد قبول الفطرة لذلك فإن هذا القبول تغير بتهويد الأبوين وتنصيرهما بحيث يخرجان الفطرة عن قبولها وإن سعيا بين بينهما ودعائهما في امتناع حصول المقبول ايضا ليس هو الإسلام وليس هو هذه الملة وليس هو الحنيفية وأيضا فإنه شبه تغيير الفطرة بجدع البهيمة الجمعاء ومعلوم أنهم لم يغيروا قبوله ولو تغير القبول وزال لم تقم عليه الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب بل المراد أن كل مولود فإنه يولد على محبته لفاطره وإقراره له بربوبيته وادعائه له بالعبودية فلو خلي وعدم المعارض لم يعدل عن ذلك إلى غيره كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من الأغذية والأشربة فيشتهي اللبن الذي يناسبه ويغذيه... فهو سبحانه خلق الحيوان مهتديا إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ثم هذا الحب والبغض يحصل فيه شيئا فشيئا بحسب حاجته، ثم قد يعرض لكثير من الأبدان ما يفسد ما ولد عليه من الطبيعة السليمة والعادة الصحيحة فهكذا ما ولد عليه من الفطرة ولهذا شبهت الفطرة باللبن بل كانت إياه في التأويل للرؤيا»[(١)].

والخلاصة أن الله تعالى حين خلق الخلق خلقهم مفطورين على الإقرار بربوبيته ومحبته، هذا يعني أن الفطرة أحد الأدلة الشاهدة على وجود الله وربوبيته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهذه الفطرة بمعناها الذي سلف ذكره عن ابن القيم لا تكفي لقيام الحجة وإنما هي جزء من الحجة التي يستوفي بها الله على العباد يوم القيامة حكمه بالعقاب ودخول النار، فإضافة إلى الميثاق الذي أخذه عليهم، وإرسال الرسل مذكرين به وإنزال الكتب وإقامة البينات، فمن أعرض بعد هذا كله فلا يلومن إلا نفسه.

---

(١) شفاء العليل (ص٢٨٨-٢٨٩).

وأمر آخر في حديث الفطرة هو نسبة الإضلال للوالدين، وهذا يخالف مذهب القدرية الذين يقولون إن العبد خالق فعله وأنه لا يضله أحد لا الله ولا غيره، والله أعلم وأحكم.

إقرار المشركين بالخلق والربوبية

من الأصول المتقررة عند أئمة السلف تبعا لما قررته آيات القرآن العزيز أن ربوبية الله تعالى لم تكن محل جدال أو خلاف بين الرسل وبين أممهم، بل كان ذلك محل اتفاق، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٣]

وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥].

وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩].

وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

حتى إن القرآن جعل إقرار المشركين بالربوبية والخلق على وجه الخصوص منطلقا في الاستدلال عليهم لتوحيد الألوهية وإلزامهم به، كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل: ١٧].

وقال: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الرعد: ١٦]

وألزمهم بطلان ألوهية أوثانهم بعجزهم عن الخلق، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣].

وقال كذلك: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

ولهذا كان عامة الخلق على هذا الاعتراف بربوبيته وانفراده بالخلق، قال ابن أبي العز: «وهو توحيد الربوبية كالإقرار بأنه خالق كل شيء وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال وهذا التوحيد حق لا ريب فيه وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضة طائفة معروفة من بني آدم بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]

وأشهر من عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون وقد كان مستيقنا به في الباطن كما قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] وقال تعالى عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]»(١).

وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] قال ابن القيم رحمه الله: «ثم قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ فأمرهم بعبادة ربهم، وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته، لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمة وإحسانه وهو مالك ذواتنا ورقابنا

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص٧٩).

وأنفسنا وكل ذرة من العبد فمملوكة له ملكا خالصا حقيقيا، وقد رباه بإحسانه إليه وإنعامه عليه، فعبادته له وشكره إياه واجب عليه، ولهذا قال: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ ولم يقل: إلهكم، والرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح، والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها، فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ فنبه بهذا أيضا على وجوب عبادته وحده وهو كونه أخرجهم من العدم إلى الوجود وأنشأهم واخترعهم وحده بلا شريك، باعترافهم وإقرارهم، كما قال في غير موضع من القرآن: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، فإذا كان هو وحده الخالق فكيف لا يكون وحده المعبود؟ وكيف يجعلون معه شريكا في العبادة؟ وأنتم مقرون بأنه لا شريك له في الخلق، وهذه طريقة القرآن، يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية»(١).

قال ابن القيم معلقا على كلام صاحب المنازل: «وأما ما فيه من التوحيد وانتهاء الأمور إلى مشيئة الرب جل جلاله وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فذلك عقد نظام الإيمان ومع ذلك فلا يكفي وحده إذ غايته تحقيق توحيد الربوبية الذي لا ينكره عباد الأصنام وإنما الشأن في أمر آخر وراء هذا، هذا بابه والمدخل إليه والدليل عليه ومنه يوصل إليه وهو التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب وعليه الثواب والعقاب والشرائع كلها تفاصيله وحقوقه وهو توحيد الإلهية والعبادة وهو الذي لا سعادة للنفوس إلا بالقيام به علما وعملا وحالا وهو أن يكون الله وحده أحب إلى العبد من كل ما سواه وأخوف عنده من كل ما سواه وأرجى له من كل ما سواه فيعبده بمعاني الحب والخوف والرجاء بما يحبه هو ويرضاه،وهو ما شرعه على لسان رسوله لا بما يريده العبد ويهواه، وتلخيص ذلك في كلمتين: إياك أريد بما تريد، فالأولى

(١) بدائع الفوائد (٢،٤٣٢-٤٣٣).

توحيد وإخلاص، والثانية اتباع للسنة وتحكيم للأمر، والمقصود أن ما أشار إليه في هذا الباب غايته تقرير توحيد الأفعال وهو توحيد الربوبية»[(١)].

وقال ابن تيمية رحمه الله: «وليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية، وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف، ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد ويظن هؤلاء أنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه فقد فنوا في غاية التوحيد.

وكثير من أهل الكلام يقول: التوحيد له ثلاث معان وهو: واحد في ذاته لا قسيم له، أو لا جزء له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له، وهذا المعنى الذي تتناوله هذه العبارة فيها ما يوافق ما جاء به الرسول ﷺ وفيها ما يخالف ما جاء به الرسول، وليس الحق الذي فيها هو الغاية التي جاء بها الرسول، بل التوحيد الذي أمر به أمر يتضمن الحق الذي في هذا الكلام وزيادة أخرى، فهذا من الكلام الذي لبس فيه الحق بالباطل وكتم الحق، وذلك أن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ونزهه عن كل ما ينزه عنه، وأقر بأنه وحده خالق كل شيء ـ لم يكن موحدا، بل ولا مؤمنا، حتى يشهد أن لا إله إلا الله، فيقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له.

والإله هو بمعني المألوه المعبود الذي يستحق العبادة ليس هو الإله بمعنى القادر على الخلق، فإذا فسر المفسر الإله بمعني القادر على الاختراع واعتقد أن هذا أخص وصف الإله وجعل إثبات هذا التوحيد هو الغاية في التوحيد كما يفعل ذلك من يفعله من المتكلمة الصفاتية وهو الذي ينقلونه عن أبي الحسن[(٢)] وأتباعه لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله،

---

(١) مدارج السّالكين(٣/ ٣٩٧).

(٢) الأشعري.

فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء وكانوا مع هذا مشركين، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦]، قال طائفة من السلف: تسألهم من خلق السماوات والأرض فيقولون الله وهم مع هذا يعبدون غيره»[(١)].

والكلام في تقرير هذا يطول، وإنما الغرض التنبيه على ما ذكره ابن تيمية وغيره من خطأ المتكلمين وغيرهم في جعل هذا التوحيد محط أنظارهم، وغاية استدلالهم، فتعبوا فيما لا يجادل فيه أحد ولا ينكره أحد إلا قلة من البشر، وتركوا التوحيد الحقيقي الذي كان محل عناية الرسل والغاية من إرسالهم، وهو الذي تدور حول تقريره وإلزام الخلق به عامة نصوص القرآن، ألا وهو توحيد الألوهية، فلبس عليهم ولبسوا هم على الناس، فكان ذلك سببا في وقوع كثير من الناس في الشرك كبيره وصغيره، ركونا منهم إلى أنهم محققين للتوحيد عندما أقروا بالخلق والربوبية، وهذا خطأ كما سبق بيانه.

❁ ❁ ❁

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٢٥).

ثانيا: دلالة صفة الخلق على توحيد الأسماء والصفات

من المعلوم عند أهل السنة أن أسماء الله تعالى ليست أعلاما محضة، بل هي أعلام وأوصاف، والوصف فيها لا ينافي العلمية [1]، فكل اسم من أسمائه له ثلاث دلالات، دلالة مطابقة على الذات والصفة، ودلالة تضمن على كل واحد من الصفة والذات، ودلالة لزوم للصفات الأخرى، والناس يتفاوتون في إدراك ما يستلزمه كل اسم من الأسماء والصفات الأخرى، فإن من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة، وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة، أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها وكذلك سائر صفاته.

ومن هنا يمكن الاستدلال بخلق الله تعالى على إثبات بقية الصفات، وذلك بطريقين:

الأولى: بطريق قياس الأولى

فإننا نعلم يقينا أن الله تعالى هو خالق الخلق، وهو الذي وهبهم كل كمال يسعى له الحي ويحبه، وخلق فيهم كذلك صفات النقص التي جبلهم على كرهها والفرار منها، ومن المعلوم بداهة أن الواهب أكمل من الموهوب، وأنه يمتنع عقلا أن يهب الشيء فاقده، ولهذا قال أئمة السلف: كل كمال ثبت للمخلوق غير مستلزم للنقص فخالقه ومعطيه إياه أحق بالاتصاف به، وكل نقص في المخلوق فالخالق أحق بالتنزه عنه، كالكذب والظلم والسفه والعيب بل يجب تنزيه الرب تعالى عن كل النقائص والعيوب مطلقا وان لم يتنزه عنها بعض المخلوقين [2].

---

(١) انظر القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ١٢٦).

(٢) انظر شرح الأصفهانية لابن تيمية (ص١٣٤) ومفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/ ٧٦).

قال ابن أبي العز: «وهذا له طريقان: أحدهما: أن يقال: نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق وأن الواجب أكمل من الممكن... الثاني: أن يقال: من الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عاريا منه، بل هو أحق به والله تعالى له المثل الأعلى»[1].

وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]

قال ابن أبي العز: «واختلفت عبارات المفسرين في المثل الأعلى ووفق بين أقوالهم من وفقه الله وهداه فقال: المثل الأعلى يتضمن: الصفة العليا وعلم العالمين بها ووجودها العلمي والخبر عنها وذكرها وعبادة الرب تعالى بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه.

فها هنا أمور أربعة:

الأول: ثبوت الصفات العليا لله سبحانه وتعالى سواء علمها العباد أو لا وهذا معنى قول من فسرها بالصفة.

الثاني: وجودها في العلم والشعور.

الثالث: ذكر صفاته والخبر عنها وتنزيهها من العيوب والنقائص والتمثيل.

الرابع: محبة الموصوف بها وتوحيده والإخلاص له والتوكل عليه والإنابة إليه وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل كان هذا الحب والإخلاص أقوى»[2].

الثانية: بطريق اللزوم أو التضمن.

فإن صفة اسم الخالق وما تضمنه من صفة الخلق له دلالة على باقي أسمائه تعالى بطريق اللزوم لأو التضمّن، فمن ذلك:

---

(١) باختصار من شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٤٢).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٣١-٢٣٦) باختصار.

صفة العلم:

قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١].

وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، قال الشنقيطي رحمه الله: «والآية تشير إلى أنه لا يمكن أن يتصف الخلاق بكونه خلاقا إلا وهو عليم بكل شيء، لا يخفى عليه شيء، إذ الجاهل بالشيء لا يمكنه أن يخلقه، وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة»[١].

قال ابن تيمية: «وأما قوله[٢]: (والدليل على علمه إيجاده الأشياء لاستحالة إيجاده للأشياء مع الجهل) فهذا الدليل مشهور عند نظار المسلمين أولهم وآخرهم، والقرآن قد دل عليه كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ والمتفلسفة أيضا سلكوه، وبيانه من وجوه:

أحدها: أن إيجاده للأشياء هو بإرادته كما سيأتي، والإرادة تستلزم تصور المراد قطعا، وتصور المراد هو العلم فكان الإيجاد مستلزما للإرادة، والإرادة مستلزمة للعلم فالإيجاد مستلزم للعلم.

الثاني: إن المخلوقات فيها من الإحكام والاتقان ما يستلزم علم الفاعل لها لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير عالم، وبهذين الطريقين يتقرر ما ذكره، ولهم طرق منها، أن من المخلوقات ما هو عالم والعلم صفة كمال؛ ويمتنع أن لا يكون الخالق عالما، وهذا له طريقان:

---

(١) أضواء البيان (٢/ ٣١٤).

(٢) يعني الأصفهاني صاحب العقيدة التي شرحها شيخ الإسلام.

أحدهما: أن يقال نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق، وأن الواجب أكمل من الممكن، ونعلم ضرورة أنا إذا فرضنا شيئين أحدهما عالم والآخر غير عالم كان العالم أكمل منه فإذا لم يكن الخالق سبحانه عالما يلزم أن يكون غير عالم أي جاهلا وهو ممتنع.

الثاني: أن يقال: كل علم في الممكنات التي هي المخلوقات فهو منه، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عاريا منه بل هو أحق»[1].

الحكمة والإحكام:

ومن الصفات التي يستلزمها اسم الخالق كذلك صفة الحكمة، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٦]، ومخلوقاته تعالى أدل دليل مشهود على حكمته في خلقه وإحكامه، كما قال: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨]

وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٢٧]، وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ [الدخان: ٣٨] وهذا يعني إن الله تعالى يخلق بعلم ويخلق لحكمة، وهذا له علاقة بمسألة تعليل أفعال الله تعالى، ومنها الخلق، والناس فيها طرفان ووسط، فمنهم من يرى أنه ليس ثمة حكم باعثة على الفعل، بل الله يفعل لمحض المشيئة وصرف الإرادة، والحكمة عندهم مترتبة على الفعل، أي أن هذه الحكمة تأتي بعد الفعل فتترتب عليه، وقد اختلف أصحاب هذا القول، فمنهم من يقول وإن كانت هذه الحكمة ليست باعثة على الفعل إلا أنها مترتبة عليه ترتبا لازما، وهذا اللزوم ليس على سبيل الوجوب على الله وإنما تفضلا منه عز وجل، وهو قول الماتريدية ومن وافقهم، بينما

(١) شرح الأصفهانية (١/ ٤٤).

قال آخرون: أن هذه الحكمة ليست باعثة على الفعل وليست لازمة له، بل قد تترتب وقد لا تترتب على الفعل، وإن ترتبت فترتبها على سبيل الجواز، لا على سبيل اللزوم، وهذا قول الأشاعرة والجهمية ومن وافقهم.

والفلاسفة وإن كانوا من نفاة التعليل إلا أنهم لم ينفوا الحكمة والتعليل اعتمادا على نفي السببية كالأشاعرة، وإنما لأنهم لا يثبتون لله تعالى الإرادة والاختيار والفعل بمشيئته، وكتبهم تقرر الحكمة والعلل الفاعلية والغائية كما يسمونها، إلا أنهم أبعد ما يكونوا عن إثباتها للرب، وذلك لعدم إثباتهم الإرادة، فهم يرون ضرورة ربط الأسباب بالمسببات، وهذا موضع اضطراب وتناقض منهم.

والقول الآخر أن أفعال الله ومنها الخلق معللة بالمصلحة والحكمة، ومن أسمائه تعالى (الحكيم)، وهذا قول عامة السلف، والمعتزلة توافق على هذا لكن شتان بين قولهم وقول أئمة السلف.

فأهل السنة يثبتون صفة الحكمة لله عز وجل ويقولون إن أفعاله معللة بالمصالح والحكم [(١)]، منها ما يعود لله ومنها ما يعود لعباده يقول ابن تيمية: «الحكمة تتضمن شيئين: أحدهما: حكمة تعود إليه يحبها ويرضاها.

والثاني: إلى عباده هي نعمة عليهم يفرحون بها ويلتذون بها، وهذا في المأمورات وفي المخلوقات، أما في " المأمورات " فإن الطاعة هو يحبها ويرضاها؛ ويفرح بتوبة التائب أعظم فرح يعرفه الناس؛ فهو يفرح أعظم مما يفرح الفاقد لزاده وراحلته في الأرض المهلكة إذا وجدها بعد اليأس؛ كما أنه يغار أعظم من غيرة العباد»[(٢)].

---

(١) انظر شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل الباب السابع عشر والثامن عشر.

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٧-٨).

ويقول ابن القيم: «أنه سبحانه حكيم لا يفعل شيئا عبثا، ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل،كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل، وقد دل كلامه وكلام رسوله على هذا وهذا في مواضع لا تكاد تحصى»(١).

وإذا سلمنا بهذا عرفنا أن أفعال الله تعالى كلها حكم وخير، فليس في خلقه تعالى شر محض، بل فعله خير كله، وإن ظهر لنا غير ذلك لقصور علمنا، وإن حصل من بعض خلقه ضرر لبعضهم، فالضرر الذي يحصل به حكمة مطلوبة لا يكون شرا مطلقا وإن كان شرا بالنسبة إلى من تضرر به(٢).

والسلف يتحرزون من إطلاق اسم (الغرض) و ما شابهه على الحكمة، إذ لم يرد في النصوص، ولم يقل به أحد من السلف، وإنما يتقيدون بما جاء في النصوص الصحيحة، ولأن لفظ الغرض يشعر بالنقص.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «وأما لفظ الغرض فالمعتزلة تصرح به وأما الفقهاء ونحوهم فهذا اللفظ يشعر عندهم بنوع من النقص إما ظلم أو حاجة، فإن كثيرا من الناس إذا قال فلان له غرض في هذا، أو فعل هذا لغرضه أرادوا أنه فعله لهواه ومراده المذموم والله منزه عن ذلك فعبر أهل السنة بلفظ الحكمة والرحمة والإرادة ونحو ذلك مما جاء به النص»(٣).

أما المعتزلة فقالت إن الفعل من غير غرض سفه يتنزه عنه الله عز وجل، فالله خلق الخلق لعلة وحكمة يريدها، وبهذا الإثبات نفوا عن الله العبث، فيقول القاضي عبد الجبار: «إن الله

---

(١) شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص١٩٠).

(٢) انظر مجموع الفتاوى(٨/ ٩٤).

(٣) منهاج السنة (١/ ٣٢٠).

سبحانه ابتدأ الخلق لعلة، نريد بذلك وجه الحكمة الذي له حسن منه الخلق فيبطل على هذا الوجه قول من قال إنه تعالى خلق لا لعلة لما فيه من إيهام أنه خلقهم عبثا»(١).

لكن هذه الحكمة التي أثبتوها هي حكمة مخلوقة منفصلة عن الله عز وجل لا يعود منها شيء إليه، بل هي عائدة بالنفع والإحسان إلى الخلق فقط، وأن عدمها عبث يتنزه الله عنه، قال ابن تيمية: «ومنهم من قال إن الحكمة المطلوبة مخلوقة منفصلة عنه أيضا كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة والشيعة ومن وافقهم، وقالوا الحكمة في ذلك إحسانه إلى الخلق والحكمة في الأمر وتعريض المكلفين للثواب، وقالوا أن فعل الإحسان إلى الغير حسن محمود في العقل فخلق الخلق لهذه الحكمة من غير أن يعود إليه من ذلك حكم ولا قام به فعل ولا نعت»(٢).

وهم مع ذلك يوجبون على الله ذلك عقلا،، يقول ابن تيمية: «وأما الإيجاب عليه سبحانه وتعالى والتحريم بالقياس على خلقه فهذا قول القدرية وهو قول مبتدع مخالف لصحيح المنقول وصريح المعقول»(٣).

وبهذا عرفنا أن المعتزلة تفارق مذهب السلف في إثبات الحكمة في أفعال الرب تعالى من وجهين، أولهما: أنهم لا يثبتون لله صفة قائمة به، والثاني: أن الحكمة عندهم عائدة إلى الخلق فقط لا يعود على الله منها شيء.

صفتا الإرادة والقدرة:

ومما تستلزمه صفة الخلق من الصفات كذلك: صفة القدرة وصفة الإرادة، وقد جمع الله بينهما كما قال: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ [النور: ٤٥] قال ابن تيمية رحمه الله:

---

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل (١١/ ٩٢-٩٣).

(٢) مجموعة الرسائل الكبرى (الإرادة والأمر ص٣٢٥).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم (٤٠٩-٤١٠).

«الفاعل إما مجرد الذات، وإما الذات بصفة فإن كان الأول فمعلوم أن العلة التامة تستلزم وجود المعلول فإذا كان مجرد الذات هو الواجب فمجرد الذات علة تامة فيلزم وجود المعلول جميعه، ويلزم قدم جميع الحوادث وهو خلاف المشاهدة، وإن كان الثاني فالصفة التي يصلح بها الفعل هي القدرة. أو يقال: فإذا لم يكن موجبا لذاته بل بصفة، تعين أن يكون مختارا فإنه إما موجب بالذات، وإما فاعل بالاختيار والمختار إنما يفعل بالقدرة إذ القادر هو الذي إن شاء فعل وإن لم يفعل فأما من يلزمه المفعول بدون إرادته فهذا ليس بقادر بل ملزوم بمنزلة الذي تلزمه الحركات الطبيعية التي لا قدرة له على فعلها ولا تركها»[(١)].

فالله تعالى إنما يخلق بمشيئة وإرادة، ولا يصدر الخلق عنه كما يصدر المعلول عن علته كما يقوله الفلاسفة ومن حذا حذوهم[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، يبطل مقولتين من أهم مقولات المخالفين للسلف في الإيمان بخلق الله، الأولى: مقولة من يفترض التناقض بين خلق الله وبين شرعه، وهؤلاء منهم من يقدح في أحكامه القدرية، وأوامره الشرعية، ويقدح في حكمته، ومنهم من ينكر القدر بناء على ذلك، وهؤلاء القدرية المجوسية الذين تفرع عن فرضيتهم هذه أقوال عديدة من أشهرها نفي خلق الله أفعال العباد ونفي قدرته عليها، والأخرى مقولة من يؤمن بخلقه وأمره القدري الكوني ولا يرى غيره، فلا يؤمن بأمره الشرعي بل يرون أن كل ما يقع إنما هو بأمره ومحبته ورضاه

(١) شرح الأصفهانية (ص٤٥).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٣٢٤).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «القدرية ثلاثة أصناف: قدرية مشركية: وهم الذين اعترفوا بالقدر وزعموا أن ذلك يوافق الأمر والنهي، وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الانعام: ١٤٨]، وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ [الزخرف: ٢٠] فهؤلاء يؤول أمرهم إلى تعطيل الشرائع والأمر والنهي، مع الاعتراف بالربوبية العامة،وأنه ما من دابة إلا ربي آخذ بناصيتها، ويغلب هذا المذهب على أهل التصوف(١) والحلول(٢).

والقدرية الثانية: المجوسية: الذين يجعلون لله شركاء في خلقه كما جعل الأولون لله شركاء في عبادته فيقولون: خالق الخير غير خالق الشر ويقول من كان منهم في ملتنا: إن الذنوب الواقعة ليست واقعة بمشيئة الله وربما قالوا: لا يعلمها أيضا، ويقولون: إن جميع أفعال الحيوان

---

(١) التصوف حركة دينية انتشرت في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري كنزعات فردية تدعو إلى الزهد والتقشف ثم تطورت حتى صارت طرقا مميزة في التعبد معروفة متميزة بمنهج يطلق عليه التصوف وله رجالاته وسماته، ومنهم من غلا إلى أنواع من المعتقدات الباطلة كالحلول والاتحاد وغير ذلك، وبين المؤرخين خلاف في سبب إطلاق هذا اللفظ هل هو نسبة إلى الفلسفة أم إلى لبس الصوف، انظر تلبيس إبليس (ص١٨٥) وما بعد، فتاوى شيخ الإسلام (١١/ ٥) وما بعدها.

(٢) الحلول: يقصد به أصحابه تجسد الخالق في المخلوق بحلوله في بعض بني الإنسان وامتزاجه به امتزاجا كاملا في الطبيعة والمشيئة بحيث تتلاشى الذات الإنسانية في الذات الإلهية، وهذا الحلول السرياني، وهو مذهب قديم من أشهر القائلين به النصارى وفرق الباطنية وغلاة الصوفية، انظر التعريفات للجرجاني (ص٩٨) واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي(ص١٠٠)، والتبصير في الدين للإسفراييني(ص١٣٠) والموسوعة الميسرة(٢/ ١٠٤٩).

واقعة بغير قدرته ولا صنعه، فيجحدون مشيئته النافذة وقدرته الشاملة، ويزعمون أن هذا هو العدل... ويقع في هذا كثير من المتكلمة والفقهاء والمعتزلة والشيعة[1].

القسم الثالث: القدرية الإبليسية: الذين صدقوا بأن الله صدر عنه الأمران أي القدر والشرع، ولكن هذا عندهم تناقض وهم خصماء الله ويقع في هذا كثير من الشعراء والزنادقة وغيرهم»[2].

وطريقة الآية في نقض المقولتين، أن الله تعالى ابتدأها بذكر ما لا يخالف فيه أحد من إتقان الخلق وتفرده به حين قال إنه هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما من الكواكب وسخرها جميعا بأمره، وهذا يقتضي اتصافه بالعلم الكامل والحكمة الكاملة، كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، كما سبق قريبا، وإذا كان سبحانه له العلم التام والحكمة البالغة فمن المحال أن يصدر عنه ما ينافيها، ثم ذكر أن له الأمر كما له الخلق، والأمر

(١) اسم عام يطلق على فرق كثيرة يجمعهم أنهم يقدمون عليا على سائر أصحاب رسول الله ﷺ ويرون أنه الإمام بعد رسول الله ﷺ بالنص، وهم أصناف، منهم الغلاة الذين يألهون عليا الأئمة، ومن الغلاة أيضا من يسب الصحابة ومنهم الشيخين أو يكفر أحدا منهم، ومن الغلاة من يدعي للأئمة العصمة أو بعض خصائص الرب كالعلم بالغيب أو التصرف في الكون أو من يدعي أنهم أفضل من الأنبياء، ومن لم يغل منهم لا يسب الصحابة ولا يعتقد في الأئمة مثل ذلك ومن أقرب فرقهم إلى السنة الزيدية أتباع زيد بن علي بن الحسين، اللذين يترضون على الصحابة ويرون صحة إمامة أبي بكر وعمر وإن كانوا يرون عليا أفضل منهما، ومن أشهر فرق الشيعة الإمامية الاثناعشرية ولهم الانتشار الواسع الآن ومن الغلاة فرق الباطنية المنتسبة لآل البيت كالإسماعيلية والنصيرية، انظر الملل والنحل(١/ ١٤٤) وما بعدها، ودراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين د. أحمد جلي(ص١٥١) وما بعدها.

(٢) باختصار من الفتاوى (٨/ ٢٥٦ -٢٦١).

هنا شامل للأمر القدري الكوني والأمر الشرعي، ففيه دليل على أن الله تعالى الذي أحكم خلق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما أحكم كذلك أمره القدري وهو التدبير والتقدير وأحكم أمره الشرعي، ومن المحال أن تقصر حكمة من أحكم خلق العالم العلوي والسفلي وأحسن تدبيره وتسخيره عن تدبير خلقه بالشرائع المصلحة لحالهم، وهذا يبطل من طعن في حكمته من القدرية الإبليسية، ويبطل قول القدرية المشركية الذين يزعمون المشي مع القدر وإن خالف الشرع بل ما ثم عندهم شرع ولا أمر ولا نهي، وهذا طعن في حكمة الله نفته الآية.

وأيضا، فإنه تعالى حين أكد على أن كلا الخلق والأمر له وحده وهما صادران عنه تعالى، فإنه بذلك ينفي عنهما التناقض الذي افترضه وتصوره من قصر علمه وفهمه من أصناف القدرية المجوسية والإبليسية، فإن الله تعالى نفى عن كلامه التناقض فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ٨٢]، فالتناقض لا يأتي إلا من قصور علم أو عجز والله تعالى منزه عن ذلك كله، لأن الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما من الأجرام التي لا تتصادم ولا يسبق بعضها بعضا موصوف بلا شك بكمال العلم وكمال القدرة، وإذا كان تعالى هو الذي صدر عنه الخلق والأمر فمن المحال أن يكون بينهما اختلاف أو تناقض يستلزم ما وقع فيها هؤلاء القدرية من الأقوال الشنيعة التي نسبت لله العجز تارة والجهل تارة تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

صفة الحياة:

ومن ذلك أيضا صفة الحياة، فإن الخلق والإيجاد لا يكون إلا بعلم وإرادة وقدرة كما سبق، وهذه الصفات لا تقوم إلا بالحي[1].

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٨).

ومن جهة أخرى فإن الموجودات تتفاوت في الرتبة، فالحي أكمل من الجماد، وكل ما كانت الحياة أكمل كان الموجود أعلى في الرتبة والفضل، وتقدم أن من دلالات العقل أن واهب الشيء أحق به وأولى وأكمل فيه من الموهوب المخلوق، فيدل ذلك على أن الحياة كمال، وواهبها أحق بالاتصاف بها تعالى، وهي حياة لا يعتريها ما يعتري حياة المخلوق، لهذا نفى عنها ذلك في قوله تعالى:

صفة العلو:

ومما تستلزمه وتدل عليه كذلك صفة العلو، فإن الله إذا كان هو الخالق للعالم، وقد علم بالضرورة العقلية والشرعية أنه مباين للعالم منفصل عنه، فلابد أن يكون في جهة منه، ولا يليق بالله تعالى إلا أن يكون في جهة العلو، قال ابن تيمية: «وهذا كله معلوم بالفطرة العقلية فالباري قبل أن يخلق العالم كان هو وحده سبحانه لاشريك له ولما خلق الخلق فإنه لم يخلقه في ذاته فيكون هو محلا للمخلوقات، ولا جعل ذاته فيه فيكون مفتقرا محمولا قائما بالمصنوعات، بل خلقه بائنا عنه فيكون فوقه وهو جهة العلو»(١).

صفة الكلام:

ويستدل لها من جهة قياس الأولى كما سبق في الحياة، ومن جهة أخرى أن الله تعالى ذكر في القرآن أنه خلق الخلق بالكلمة (كن)، وبذلك استدل من قال من السلف إن القرآن كلام الله وليس بمخلوق، فعن أبي نعيم الإسترابادي قال: قلت للربيع: سمعت البويطي يقول: إنما خلق الله كل شيء بكن، فإن كانت كن مخلوقة فمخلوق خلق مخلوقا، قال: فحكاه الربيع قلت:

---

(١) الفتاوى الكبرى (٦/ ٣٥٥).

وهذا معنى ما يعبرون عنه العلماء اليوم: إن هذا كن الأول كان مخلوقا، فهو مخلوق بكن أخرى، فهذا يؤدي إلى ما يتناهى، وهو قول مستحيل[1].

وقال العمراني رحمه الله: «الدليل على أن القرآن غير مخلوق، وأن الله تكلم بالحروف قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، فأخبر سبحانه أنه خلق الأشياء بقوله تعالى: (كن) وهما حرفان، فلو كان قوله وهو (كن) مخلوقا لاقتضى أن يكون مخلوقا بـ (كن) أخرى، وكذا (كن) الثانية تقتضي أن تكون مخلوقة بـ (كن) إلى ما لا نهاية له. وهذا يؤدي إلى المحال»[2].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فهذا يقتضي أنه إذا أراد شيئا فإنما أمره أن يقول له كن فيكون، وقوله: إذا أراده، فاقتضى هذا انه لم يخلق شيئا إلا وقد قال له: كن، فلو كانت (كن) مخلوقة لكانت مخلوقة بـ (كن) أخرى، وكذلك الثانية مخلوقة بـ(كن) أخرى وهلم جرا،فيلزم ألا يخلق شيئا، لأنه لا يصير خالقا لشيء حتى يخلق (كن) أخرى ولا يخلق (كن) حتى يخلق (كن)، فلزم التسلسل في كونه خالقا، وهو تسلسل في أصل التأثير وفي أصل كون المؤثر مؤثرا، وهو تسلسل في أصل الخلق كالتسلسل في ذات الخالق، فإذا قدر ذلك لزم أن لا يصير خالقا بحال، كما إذا قيل لا يخلق شيئا حتى يجعل نفسه خالقا، ولا يجعل نفسه خالقا حتى يخلق شيئا،فإن هذا ممتنع.

فلما دل القرآن على أن قوله (كن) مما يخلق بها جميع المراد كانت من تمام الخلق فلم يجز أن تكون مخلوقة.

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (ح٣١٣).

(٢) الانتصار في الرد على المعتزلة الأشرار (٢/ ٥٤٦).

وأيضا فإذا كانت مخلوقة فلا بد أن تخلق في محل ومحلها مخلوق قبلها وظاهر القرآن يخالف ذلك»[١].

وفذلكة المقام أن ثبوت صفة الخلق لله، وما ذكره الله عن نفسه أنه يخلق الخلق بقوله (كن) ينتج عنهما نتيجة مفادها ثبوت صفة الكلام لله تعالى ومنه القرآن وأنه غير مخلوق.

كما دلنا خلقه كذلك على صفات أخرى مثل (الكبير) و(العظيم) و (الواسع) و (الخبير) وغيرها، ولولا خوف الإطالة لذكرنا لكل ذلك شواهد من النص والعقل وإنما الغرض الإشارة إلى ذلك، والله تعالى أعلم وأحكم.

(١) الصفدية (٢/ ٧١).

ثالثاً: دلالة صفة الخلق على توحيد الألوهية

من مسائل الخلق عند أهل السنة دلالته على الألوهية، أعني إفراده تعالى بالعبادة واستحقاقه لهذا الإفراد، ومن المعلوم أن توحيد العبادة أو توحيد الإرادة والقصد هو لب دعوة الرسل، وهو أول واجب على المكلف، وهو الفارق بين المسلم وغير المسلم، وهو معنى كلمة التوحيد لا إله إلا الله التي يدخل بها العبد في الإسلام ويخرج بها من الدنيا، وهو حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد غيره كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد أسهب القرآن الكريم في تقرير هذا التوحيد والاستدلال له وإقامة الحجة عليه بأنواع الأدلة والبراهين التي من أهمها وأكثرها ظهورا فيه، الاستدلال بخلق الله تعالى وكونه المتفرد بالخلق وما يتبع ذلك ويستلزمه من أفعال الربوبية على استحقاقه تعالى توحيده وإفراده بالعبادة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١] قال الإمام الطبري رحمه الله: «فإن قال قائل: وكيف احتج على أهل الكفر بقوله: "إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار" الآية، في توحيد الله؟ وقد علمت أن أصنافا من أصناف الكفرة تدفع أن تكون السموات والأرض وسائر ما ذكر في هذه الآية مخلوقة؟

قيل: إن إنكار من أنكر ذلك غير دافع أن يكون جميع ما ذكر تعالى ذكره في هذه الآية، دليلا على خالقه وصانعه، وأن له مدبرا لا يشبهه شيء، وبارئا لا مثل له. وذلك وإن كان كذلك، فإن الله إنما حاج بذلك قوما كانوا مقرين بأن الله خالقهم، غير أنهم يشركون في عبادته عبادة

الأصنام والأوثان. فحاجهم تعالى ذكره فقال -إذ أنكروا قوله: "وإلهكم إله واحد"، وزعموا أن له شركاء من الآلهة-: إن إلهكم الذي خلق السموات وأجرى فيها الشمس والقمر لكم بأرزاقكم دائبين في سيرهما...فأخبرهم أن إلههم هو الله الذي أنعم عليهم بهذه النعم، وتفرد لهم بها، ثم قال: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾، فتشركوه في عبادتكم إياي، وتجعلوه لي ندا وعدلا؟ فإن لم يكن من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء، ففي الذي عددت عليكم من نعمتي، وتفردت لكم بأيادي، دلالات لكم إن كنتم تعقلون مواقع الحق والباطل، والجور والإنصاف. وذلك أني لكم بالإحسان إليكم متفرد دون غيري، وأنتم تجعلون لي في عبادتكم إياي أندادا. فهذا هو معنى الآية».

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠]، قال ابن سعدي رحمه الله: «يخبر تعالى أنه وحده المنفرد بخلقكم ورزقكم وإماتتكم وإحيائكم، وأنه ليس أحد من الشركاء التي يدعوهم المشركون من يشارك الله في شيء من هذه الأشياء، فكيف يشركون بمن انفرد بهذه الأمور من ليس له تصرف فيها بوجه من الوجوه؟!»[(١)].

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، قال ابن كثير: «أي: وقد خلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يعبد معه غيره، كما قال إبراهيم: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦]، ومعنى الآية: أنه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق وحده؛ فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له»[(٢)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ٦٤٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٠٧).

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣] قال ابن كثير: «ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فليفرد بالعبادة، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان؛ ولهذا قال: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أي: فكيف تؤفكون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان؟»[١].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١] ، قال ابن القيم رحمه الله: «ثم قال: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ فنبه بهذا أيضا على وجوب عبادته وحده وهو كونه أخرجهم من العدم إلى الوجود وأنشأهم واخترعهم وحده بلا شريك باعترافهم وإقرارهم كما قال في غير موضع من القرآن ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله فإذا كان هو وحده الخالق فكيف لا يكون وحده المعبود وكيف يجعلون معه شريكا في العبادة وأنتم مقرون بأنه لا شريك له في الخلق وهذه طريقة القرآن يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فنبه بذلك على أنه وحده الخالق لكم ولآبائكم ومن تقدمكم وإنه لم يشركه أحد في خلق من قبلكم ولا في خلقكم وخلقه تعالى لهم متضمن لكمال قدرته وإرادته وعلمه وحكمته وحياته وذلك يستلزم لسائر صفات كماله ونعوت جلاله فتضمن ذلك إثبات صفاته وأفعاله ووحدانيته في صفاته فلا شبيه له فيها ولا في أفعاله فلا شريك له فيها»[٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٣٣).

(٢) بدائع الفوائد (٤/ ٩٤٣).

وقال على لسان أهل السنة: «فإن الله سبحانه أنكر عليهم عبادة من لا يخلق شيئا أصلا وترك عبادة من هو خالق لذواتهم وأعمالهم فإذا كان الله خالقكم وخالق أعمالكم فكيف تدعون عبادته وتعبدون من لا يخلق شيئا لا ذواتكم ولا أعمالكم وهذا من أحسن الاحتجاج.

وقد تكرر في القرآن الإنكار عليهم أن يعبدوا ما لا يخلق شيئا وسوى بينه وبين الخالق كقوله: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧] وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾ [النحل: ٢٠] وقوله: ﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان: ١١] إلى أمثال ذلك، فصح الاحتجاج وقامت الحجة بخلق الأعمال مع خلق الذوات»[١].

وقال العلامة الشنقيطي رحمه الله: «وفي الآية[٢] سر لطيف، وهو أن من أبرز من العدم إلى الوجود هو الذي يستحق أن يعبد، ويتاب إليه من الذنوب؛ لأن عنوان استحقاق العبادة إنما هو الخلق، فمن يخلق ويبرز من العدم إلى الوجود فهو المعبود الذي يعبد وحده، ويتنصل إليه من الذنوب، ومن لا يخلق فهو مربوب محتاج إلى خالق يخلقه؛ ولذا كثر في القرآن الإشارة إلى أن ضابط من يستحق العبادة هو الخالق الذي يبرز من العدم إلى الوجود، كما تقدم في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢١]، وكما في قوله: ﴿ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: ١٦]، وخالق كل شيءٍ هو المعبود وحده، وقال جل وعلا: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧]، الجواب: لا»[٣].

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٥٦).

(٢) يعني قوله تعالى: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [البقرة: ٥٤].

(٣) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (١/ ٩٣).

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، قال الشيخ ابن سعدي: «﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾ فإنهما مدبران مسخران مخلوقان، ﴿وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ أي: اعبدوه وحده، لأنه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه، من المخلوقات، وإن كبر، جرمه وكثرت مصالحه، فإن ذلك ليس منه، وإنما هو من خالقه، تبارك وتعالى. ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له».

ومن ذلك وجوب التحاكم إليه تعالى والإيمان بحقه المطلق في الأمر الشرعي كما له الحق المطلق في الأمر الكوني، ولهذا أشار تعالى في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالجمع بينهما دليل على ارتباط أحدهما بالآخر واستلزامه له، قال ابن سعدي: «أي: له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعيانها وأوصافها وأفعالها والأمر المتضمن للشرائع والنبوات، فالخلق: يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر: يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وثم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء»(١)، وقال كذلك: «وكثيرا ما يقرن بين الخلق والأمر... وذلك أنه الخالق الآمر الناهي، فكما أنه لا خالق سواه فليس على الخلق إلزام ولا أمر ولا نهي إلا من خالقهم، وأيضا فإن خلقه للخلق فيه التدبير القدري الكوني وأمره فيه التدبير الشرعي الديني، فكما أن الخلق لا يخرج عن الحكمة فلم يخلق شيئا عبثا ،فكذلك لا يأمر ولا ينهى إلا بما هو عدل وحكمة وإحسان»(٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ٢٩١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ٥٠١).

وقال الشنقيطي رحمه الله: «لأن الله خالق كل شيءٍ، وله الأمر، هو الذي وحده له الأمر، يأمر بما شاءَ بأوامره الكونية وأوامره الشرعية، فلا أمر كونياً قدرياً إلا له، ولا أمر شرعياً دينياً إلا له»(١).

وقال كذلك: «وقد أقام الله جل وعلا البرهان القاطع على صحة معنى لا إله إلَّا الله، نفيًا وإثباتًا، بخلقه للسماوات والأرض وما بينهما، في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾[البقرة:٢١-٢٢] الآية.

وبذلك تعلم أنَّه ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلَّا خلقًا متلبسًا بأعظم الحق، الذي هو إقامة البرهان القاطع على توحيده جل وعلا، ومن كثرة الآيات القرآنية الدالة على إقامة هذا البرهان القاطع المذكور على توحيده جل وعلا، علم من استقراء القرآن أن العلامة الفارقة بين من يستحق العبادة وبين من لا يستحقها، هي كونه خالقًا لغيره، فمن كان خالقًا لغيره فهو المعبود بحق، ومن كان لا يقدر على خلق شيء فهو مخلوق محتاج، لا يصح أن يعبد بحال.

فالآيات الدالة على ذلك كثيرة جدًّا، كقوله تعالى في آية البقرة المذكورة آنفًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[البقرة:٢١] الآية، فقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ يدل على أن المعبود هو الخالق وحده، وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[الرعد:١٦] الآية. يعني: وخالق كل شيء هو المعبود وحده.

وقد أوضح تعالى هذا في سورة النحل؛ لأنه تعالى لما ذكر فيها البراهين القاطعة على توحيده جل وعلا، في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٣/ ٣٩٢).

[النحل:٣] إلى قوله: ﴿ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل:١٦] أتبع ذلك بقوله: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل:١٧].

وذلك واضح جدًّا في أن من يخلق غيره هو المعبود، وأن من لا يخلق شيئًا لا يصح أن يعبد.

ولهذا قال تعالى بعده قريبًا منه: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾[النحل:٢٠]، وقال تعالى في الأعراف: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف:١٩١] ، وقال تعالى في الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾[الحج:٧٣] أي ومن لا يقدر أن يخلق شيئًا لا يصح أن يكون معبودًا بحال، وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾[الأعلى:١-٢] الآية.

ولما بين تعالى في أول سورة الفرقان، صفات من يستحق أن يعبد، ومن لا يستحق ذلك، قال في صفات من يستحق العبادة: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان:٢] وقال في صفات من لا يصح أن يعبد: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[الفرقان:٣] الآية.

والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًّا، وكل تلك الآيات تدل دلالةً واضحةً على أنَّه تعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلَّا خلقًا متلبسًا بالحق»[1].

والخلاصة أن القرآن أظهر وأبرز دلالة الخلق على ألوهية الله واستحقاقه تعالى لإفراده بهذا الحق المطلق، وليس الخلق وحده المصحح لهذا الحق والموجب له، بل كل صفاته وافعاله تعالى

(١) أضواء البيان (٧/ ٣٩٠).

موجب لهذا الإفراد والتوحيد، وإنما اكتسبت صفة الخلق هذه المنزلة لشدة تعلقها بالمخلوق من حيث إظهار النعمة عليه، وظهور حاجته في وجوده وبقائه إليه تعالى، والله تعالى أعلم وأحكم.

❁ ❁ ❁

نهاية الجزء الرابع ، ويتلوه الجزء الخامس:

في قوله ﷺ: «**أَيُّما امرأةٍ نُكِحت بغير إذن وليِّها فنكاحُها باطلٌ، فنكاحها باطلٌ، فنكاحها باطلٌ**».

والله الموفق وهو المعين.